القاهرة الإسلامية :

جامع الأشرف جانبلاط

مدرسته وضريحه

للأستاذ أحمد رمزي بك

كتب الجبرتي في تاريخه عن حوادث شهر ذي الحجة الحرام سنة ١٢١٥ هجرية « وانقضت هذه السنة بحوادثها وما حصل فيها ، فيها توالى الهدم والخراب ، وتغير للعالم وتنويع الظالم ، وعم الخراب خط الحسينية ، خارج باب الفتوح والخرنفش ، فهدموا تلك الاخطاط والجهات والحارات والدروب والحمامات والمساجد والزارات والروايا والتكايا وما بها من القور والقصور الزخرفة ، وجامع الجنبلاطية بباب النصر ، وما كان به من التباب النظام ، المنقودة من الحجر المنحوت المربعة الأركان الشبيهة بالأهرام ، والمنارة العظيمة ذات الهلالية ، واتصل الهدم خارج باب النصر وباب الفتوح وباب القوص إلى باب الحديد ، حتى بقي ذلك كله خراباً متصلا وبقي سور المدينة الأصلي ظاهراً مكشوفاً » .

لماذا أقدم الفرنسيون على هذا التدمير والتخريب وإزالة هذه المعالم ؟ .

وما الذي جنته الآثار الاسلامية لكي تسوى بالأرض وتزال من الوجود ؟ .

واستمر الجبرتي يحدثنا عن المساجد والمدارس والدور والآثار التي هدمت ، والنفس تفيض أسى وحسرة ، ثم ختم بقوله « قصدوا بذلك إنشاء عدة قلاع ومتاريس وتحصينات لحماية القاهرة » .

كنت أسمع للمؤرخ المصري وكأنه ينزع بكلامه عن كل أثر قطعة مني لأني ناصري مولداً ونشأة ، وأرى في القاهرة مدينة حية خلال العصور الماضية إنما أصابها سوء فكأنه أصابني . وأعجب لقوم لا يشعرون بشعوري ، ولا يقدرون عظمة القاهرة الاسلامية ! وقمت مسرعاً في سيارة وقد جعلت في يدي خريطة الحملة الفرنسية وأخرى مفصلة لتلك الناحية ، ونظرت إلى باب النصر وإلى باب الفتوح ، وقلت من هنا مر صلاح الدين وبعده نابليون ، وهذا جامع الحاكم : ترى لو كان مع غيرنا هل يتركونه على حالته ؟ أم كانوا يميدون إليه رونقه ، ويجعلونه بيتاً للعبادة ؟

وفتحت أطالس الفرنسيين وعثرت على جامع الأشرف ورسمه وشكله فإذا بي أكون فكرة عما كان عليه المسجد قبل هدمه ، ومن نظرة واحدة تعرفت على ركن قائم منه في زاوية من سور القاهرة في الجهة الشرقية من باب النصر .

ونظرت إلى الباقي منه أناديه مناداة من يصبو إلى بانيه وواضعه ، وأرثي لسقطة هادميه ويقول لم يجدوا لقلاعهم وخنادقهم غير حجارة هذا المسجد !

وما الذي كسبوه بإزالة معالمه ؟ لقد أصبح مكانه فضاء كساحة خالية ، فأخذت أسير فيها وقد تملكتني رهبة ، ثم مر بخاطري النظر الآتي :

كيف جاء صاحب المسجد بعد زيارته لقبر قايتباي فكشف عن عمارة هذه المدرسة ، ثم دخل من باب النصر وشق المدينة فكان آخر عهده بها إلى أن أحضرت جثته من الأسكندرية في شوال سنة ٩٠٦ في عهد الغوري فدفنت بتربة الأشرف قايتباي ثم تقدمت مماليكه « فقالوا لا ندفن أستاذنا إلا في تربته التي بباب النصر » فنقل إليها وهذه ثالث نقلة لجثمانه .

ومرت منذ مدة فإذا الركن الذي كان ملتقياً بالسور عند باب النصر وبقي من هدم جيوش نابليون قد أزيل بدوره . وذهبت المدرسة وضاع الضريح . ويقول حارس الأضرحة إن جماعة يسكنون في جهة تحت الربع كانوا يدفنون موتاهم في أرض المدرسة ويقولون إنهم من سلالة الأشرف جانبلاط الرابع والأربعين من ملوك الترك ، والثامن عشر من ملوك الجراكسة بالديار المصرية . قلت نعم وهو الذي تولى إمارة ركب المحمل المصري سنة ٨٩٤هـ وكان قاصداً (سفيراً) لدى بني عثمان سنة ٨٩٦ هجرية ثم نائب مصر بحلب ثم بالشام ثم أتابك العساكر المصرية بعد الأتابكي أزبك

وانتهى أمره وأمر مدرسته ومعهده وضاعت معالم قبره وتذكرت أبا الطيب المتنبي وقوله .

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها
وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه [1]

(شارع الأهرام بالجيزة) أحمد رمزي

(١) ذكر الثري في الكواكب السائرة أن جثمانه لم يتغير (ص١ جزء أول)